لفتات تربوية

" يقول ابن كثير في البداية والنهاية "

د . صلاح الدين النكدلي

الطبعة الشبكية الأولى

ربيع الثاني / 1436هـ

شباط / فبراير 2015م

الناشر : الدار الإسلامية للإعلام

© *Islamischer Info. Dienst Verlag*

العنوان

I.I.D e.V.
Juelicher Strasse 114
D-52070 Aachen
Germany

Tel: + 49 241-538373
Fax: + 49 241-538887

Email: iid@iid-alraid.com
Website: www.iid-alraid.com

1. Auflage, 02.2015

بسم الله الرحمن الرحيم

عزيزي القاريء :

سبحان من ألقى في قلبي الإقبال على قراءة أخبار رجال التربية من سلف هذه الأمة ، وكنت –وما زلت– أشعر بمتعة وفوائد حين أتجول في الصفحات التي تذكر قصة صغيرة أو قولاً يُنسب إلى أولئك الأعلام ، ثم وجدتني أسجل بعض أخبارهم وحِكَمِهِم .. واستفدت منها كثيراً والحمد لله

وكان من جملة الكتب التي قرأتها «البداية والنهاية» للإمام ابن كثير ، وفيه وقفت على فوائد جمة دفعتني إلى اختيار ما لفت انتباهي من أقوال وقصص موحية بمسائل تربوية ، وسجلت ذلك في كُرَّاس .. ووضعت عنواناً لكل قول أو قصة .. وإن كان العنوان لا يتضمن –غالباً– المعاني الواردة في المختارات جميعها ..

ومرت الأيام .. وجاء عصر «الشبكة العنكبوتية» الذي حرك عندي التفكير في الاستفادة مما سجلته لنفسي في ماضيات الأيام .. وكان من جملة ذلك .. اختيار مجموعة قصص تحمل في طياتها إرشادات تربوية .. وقمت بنشرها في بعض مواقع التواصل المتاحة .. فلقيت قبولاً .. وهذا دفعني إلى جمع عدد من هذه القصص الرمزية القصيرة .. ونشرها في رسالة بعنوان :

لفتات تربوية

«يقول ابن كثير في البداية والنهاية»

ولم أرغب في أن تكون هذه الاختيارات كثيرة .. لتسهل الاستفادة منها .. وأسأل الله تعالى أن ينفع بها .. وأن يتقبل هذا الجهد ...

د. صلاح الدين النكدلي

كان سعيد بن المسيب

كان سعيد بن المسيب ..

1- من أورع الناس .. فيما يدخل بيته وبطنه .

2- وكان من أزهد الناس .. في فضول الدنيا ، والكلام فيما لا يعني .

3- ومن أكثر الناس .. أدباً في الحديث .

جاءه رجل وهو مريض فسأله عن حديث ، فجلس فحدّثه ثم اضطجع .. فقال الرجل : وددت أنك لم تتعنَّ ! ..

فقال : إني كرهت أن أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع .

لم أمسكه بخلاً

كان لسعيد بن المسيب مالٌ يتَّجر فيه ، ويقول :

اللهم إنك تعلم أني لم أمسكه بخلاً .. ولا حرصاً عليه .. ولا محبةً للدنيا ونيلَ شهواتها .. وإنما أريد أن :

1- أصونَ به وجهي عن بني مروان حتى ألقى الله فيحكم فيَّ وفيهم ..

2- وأصلَ منه رحمي .. وأؤديَ منه الحقوق التي فيه ..

3- وأعودَ منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار .

شهد الجنازة خير الناس وشر الناس !

قال الأصمعي وغير واحد :

لما ماتت النوار بنت أعين بن ضبيعة المجاشعي امرأة الفرزدق ، وكانت قد أوصت أن يصلي عليها الحسن البصري ، فشهدها أعيان أهل البصرة مع الحسن ، والحسن على بغلته ، والفرزدق على

بعيره ..

فقال الحسن للفرزدق : ماذا يقول الناس ؟ .. وكان الفرزدق قد طلق النوار ثلاثاً .

قال : يقولون : شهد هذه الجنازة اليوم خيرُ الناس ، يعنونك ، وشرُّ الناس ، يعنوني.

فقال له : يا أبا فراس لست أنا بخير الناس ، ولستَ أنت بشرِّ الناس ، ثم قال له الحسن : ما أعددت لهذا اليوم ؟

قال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة .

فلما أن صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها ، فأنشأ الفرزدق يقول :

أخـــاف وراء القبـــر إنْ لـــم يعـــافني أشـــدَّ مـــن القبـــرِ التهابـــاً وأضـــيقا

إذا جـــاءني يـــوم القيامـــة قائـــدٌ عنيـــفٌ وســـوَّاقٌ يســـوق الفرزدقـــا

لقـــد خـــاب مـــن أولاد آدمَ مـــن مشـــى إلـــى النـــار مغلـــولَ القـــلادةِ أزرقـــا

يســـاق إلـــى نـــار الجحـــيم مســـربَلاً ســـرابيلَ قطـــران لباســـاً مخرَّقـــا

إذا شـــربوا فيهـــا الصـــديد رأيـــتهم يـــذوبون مـــن حـــرِّ الصـــديد تمزُّقـــا

قال : فبكى الحسن حتى بلَّ الثرى ، ثم التزم الفرزدق ، وقال : لقد كنتَ من أبغض الناس إليَّ ، وإنك اليوم من أحب الناس إلي .

كـانوا .. وصـرتم !!

روى ابن أبي الدنيا أن الحسن البصري قال :

كان الرجل يتعبد عشرين سنة لا يشعر به جارُه .. وأحدكم يصلي ليلةً أو بعضَ ليلةٍ فيصبح وقد استطال على جاره ..

وإنْ كان القوم لَيجتمعون فيتذاكرون .. فتجيء الرجلَ عَبرتُه فيردها ما استطاع .. فإنْ غُلِبَ قام عنهم !! .

كذبَ .. لو أحسن الظن لأحسن العمل

روي الطبراني عن الحسن البصري أنه قال :

إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة ، ورجاء الرحمة .. حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة .. يقول أحدهم : إني لَحَسُنُ الظنِّ بالله ، وأرجو رحمةَ الله . وكَذَبَ .. لو أحسنَ الظن بالله لأحسن العمل لله ، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة .. يوشك من دخل المفازة من غير زاد ولا ماء أن يهلك ! .

فاحسر عن رأسك قناع الغافلين

روى العتبي أن الحسن البصري كتب إلى فرقد :

أما بعد ، فإني أوصيك :

1- بتقوى الله ، والعمل بما علّمك الله ، والاستعداد لما وعد الله ، مما لا حيلة لأحد في دفعه ، ولا ينفع الندم عند نزوله ..

2- فاحسر عن رأسك قناع الغافلين .. وانتبه من رقدة الجاهلين .. وشمِّر الساق ؛ فإن الدنيا ميدانُ مسابقة ، والغايةُ الجنةُ أو النار .. فإن لي ولك من الله مقاماً يسألني وإياك فيه عن : الحقير والدقيق .. والجليِّ والخافي ..

3- ولا آمنُ أن يكون فيما يسألني وإياك عنه .. وساوس الصدور .. ولحظ العيون .. وإصغاء الأسماع .. وما أعجز عنه ! .

أدِمِ الحزنَ .. وابكِ في الخلوة

روي ابن أبي الدنيا عن حمزة الأعمى قال : ذهبت بي أمي إلى الحسن البصري ، فقالت : يا أبا سعيد ، ابني هذا قد أحببت أن يلزمك ، فلعل الله أن ينفعه بك . قال : فكنت اختلف إليه ، فقال

لي يوماً :

يا بُنَيَّ !

- أَدِمِ الحزنَ على خير الآخرة .. لعله تعالى أن يوصلك إليه .
- وإبكِ في ساعات الليل والنهار في الخلوةَ .. لعل مولاك أن يطلع عليك فيرحم عَبرتَك فتكونَ من الفائزين .

قال حمزة : وكنتُ أدخل على الحسن منزله وهو يبكي ، وربما جئت إليه وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه ، فقلت له يوماً : إنك تكثر البكاء !! .

فقال : يا بُني ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبك ؟! .. يا بني إن البكاء داعٍ إلى الرحمة .. فإن استطعت أن تكون عُمُرَكَ باكياً فافعل .. لعله تعالى أن يرحمك .

من علامات المسلم

روى ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين أن الحسن البصري قال :

من علامات المسلم : قوةٌ في دين ، وحزمٌ في لين ، وإيمانٌ في يقين ، وحكمٌ في علم ، وحبسٌ في رفق ، وإعطاءٌ في حق ، وقصدٌ في غنى ، وتحمُّلٌ في فاقة ، وإحسانٌ في قدرة ، وطاعةٌ معها نصيحة ، وتورُّعٌ في رغبة ، وتعفُّفٌ وصبرٌ في شدة .

لا ترديه رغبة ، ولا يبدره لسانُه ، ولا يسبقه بصرُه ، ولا يغلبه فرجُه ، ولا يميل به هواه ، ولا يفضحه لسانه ، ولا يستخفُّه حرصُه ، ولا تُقَصِّرُ به نية .

اعتبروا الناس بأعمالهم

قال الحسن البصري : اعتبروا الناس بأعمالهم .. ودعوا أقوالهم ؛ فإن الله عزَّ وجلَّ لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه ..

فإنْ سمعتَ قولاً حسناً .. فرويداً بصاحبه ؛ فإن وافق قولٌ عملاً فنعم .. ونَعِمَّتْ عين أخته وأخيه ، وإذا خالف قول عملاً .. فماذا يشبه عليك منه ؟ أم ماذا يخفى عليك منه ؟ إياك وإياه لا يخدعنك !

ابنَ آدم :

1- إن لك قولاً وعملاً .. فعملُك أحقُّ بك من قولك .

2- وإن لك سريرةً وعلانيةً .. فسريرتُك أحقُّ منك من علانيتك .

3- وإن لك عاجلةً وعاقبةً .. فعاقبتُك أحقُّ بك من عاجلتك .

المؤمن قوَّام على نفسه

روى ابن أبي الدنيا أن الحسن البصري قال :

المؤمن قوام على نفسه .. يحاسب نفسه لله عزَّ وجلَّ ؛ وإنما خفَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على أقوام أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .

إنَّ المؤمنَ يفجؤُهُ الشيءُ ويعجبه ، فيقول : واللهِ إنك لمن حاجتي ، وإني أشتهيك ، ولكن والله ما من صلة إليك ، هيهات حيل بيني وبينك . ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما أردت إلى هذا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم قد أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هَلَكَتِهِم ، إن المؤمن أسيرٌ في الدنيا يسعى في فكاك رقبته ، لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله عزَّ وجلَّ ، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه ، وفي جوارحه كلها .

أدركتُ صدر هذه الأمة

قال الحسن البصري :

أدركت صدر هذه الأمة وخيارها ، وطال عمري فيهم ، فوالله إنهم كانوا فيما أحلَّ الله لهم أزهدَ منكم فيما حرم الله عليكم .

أدركتُهم عاملين بكتاب ربهم ، متبعين سنة نبيهم ، ما طوى أحدهم ثوباً ، ولا جعل بينه و بين الأرض شيئاً ، ولا أمر أهله بصنع طعام ، كان أحدهم يدخل منزله فإنْ قُرِّبَ إليه شيء أكل ، وإلا سكت فلا يتكلم في ذلك .

سئل الحسن عن النفاق

سئل الحسن البصري عن النفاق ؟

فقال : هو اختلاف السر والعلانية ، والمدخل والمخرج . وقال : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق . **وحلفَ الحسنُ** : ما مضى مؤمنٌ ولا بقي إلا وهو يخاف النفاق .. ولا مضى منافق ولا بقي إلا وهو من النفاق آمن ! .

فلا أهلاً بك ولا سهلاً !!

قال الحسن البصري :

تجد الرجل قد لبس الأحمر والأبيض .. وقال : هلموا فانظروا إليَّ .

قد رأيناك يا أفسقَ الفاسقين ، فلا أهلاً بك ولا سهلاً !!

– فأما أهل الدنيا .. فقد اكتسبوا بنظرهم إليك مزيدَ حرص على دنياهم ، وجرأةً على شهوات الغنى في بطونهم وظهورهم .

– وأما أهل الآخرة .. فقد كرهوك ومقتوك ! .

انظروا من أين أتاه شيطانُه !

قال فرقد : دخلنا على الحسن البصري فقلنا : يا أبا سعيد ، ألا يعجبك من محمد بن الأهتم ؟ .

فقال : ما له ؟ .

فقلنا : دخلنا عليه أنفاً وهو يجود بنفسه ، فقال : انظروا إلى ذاك الصندوق – و أومأ إلى صندوق في جانب بيته – فقال : هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار –أو قال : درهم– لم أؤدِّ منها زكاة ، ولم أصل منها رحماً ، ولم يأكل منها محتاج .

فقلنا : يا أبا عبد الله ، فلمن كنت تجمعها ؟!

قال : لروعة الزمان ، و مكاثرة الأقران ، وجفوة السلطان .

فقال الحسن : انظروا من أين أتاه شيطانه .. فخوَّفه روعةَ زمانه ، ومكاثرةَ أقرانه ، وجفوةَ سلطانه !! .

ثم قال : أيها الوارث ! لا تُخْدَعَنَّ كما خُدع صُويحبُك بالأمس ، جاءك هذا المال لم تتعب لك فيه يمين ، ولم يعرق لك فيه جبين ، جاءك ممَّن كان له جموعاً منوعاً : من باطل جمعه ، من حق منعه .

ثم قال الحسن :

إنَّ يومَ القيامةِ لذو حسرات .. الرجل يجمع المال ثم يموت ويدعه لغيره .. فيرزقه الله فيه الصلاحَ والإنفاقَ في وجوه البر .. فيجد ماله في ميزان غيره !! .

ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا ؟

قال مالك بن دينار : قلت للحسن البصري : ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا ؟

قال : موت القلب ، فإذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة ... فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ... ويبقى عليه رسمه .

السلامةُ من الناس غايةٌ لا تُدرك

قال رجل للحسن البصري : إن قوماً يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلاً .

فقال : هَوِّنْ عليك يا هذا ! ، فإني أطمعتُ نفسي في الجِنان فطمعتْ .. وأطمعتُها في النجاة من النار فطمعت .. وأطمعتُها في السلامة من الناس .. فلم أجد إلى ذلك سبيلاً .. **فإن الناس لم يرضوا عن خالقهم ورازقهم .. فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم ؟!**

لو فهمتها بقلبك لألْفيت لها فيه كلوماً

قال عمر بن ميمون بن مهران : خرجت بأبي أقوده في بعض سكك المدينة ، فمررنا بجدول فلم يستطع الشيخ أن يتخطاه ، فاضطجعت له فمرّ على ظهري ، ثم قمت فأخذت بيده . ثم دفعنا إلى منزل الحسن –البصري– فطرقت الباب ، فخرجت إلينا جارية ، فقالت : من هذا ؟ فقلت : هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن . فقالت : كاتبُ عمر بن عبد العزيز ؟ ، قلت لها : نعم ، قالت : يا شقي ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء ؟! .

قال : فبكى الشيخ ، فسمع الحسن بكاءه فخرج إليه ، فاعتنقا ثم دخلا ، فقال ميمون : يا أبا سعيد ! إني قد أَنِسْتُ من قلبي غِلظةً فاستكن لي منه ، فقرأ الحسن : ﴿**أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۞ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۞ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾ [الشعراء : 205–207] . فسقط الشيخ مغشياً عليه ، فرأيته يفحص برجليه كما تفحص الشاة إذا ذُبحت ، فأقام طويلاً ثم جاءت الجارية فقالت : قد أتعبتم الشيخ قوموا تفرقوا .

فأخذت بيد أبي فخرجت فقلت : أَبَتِ أهذا هو الحسن ؟! .

قال : نعم .

قلت : قد كنت أحسب في نفسي أنه أكبر من هذا ؟! . قال : فوكز في صدري وكزة ثم قال : يا بني لقد قرأ علينا آيةً لو فهمتها بقلبك لألفيت لها فيه كُلوما .

إذا التبس عليك أمرٌ فارفعه إليّ

استعمل عمر بن عبد العزيز ميمون بن مهران على الجزيرة وعلى قضائها وخراجها ، فمكث حيناً ثم كتب إلى عمر يستعفيه من ذلك ، وقال : كلفتني ما لا أطيق ، أقضي بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق .

فكتب إليه عمر : اجْبِ من الخراج الطيب ، واقْضِ بما استبان لك ، فإذا التبسَ عليك أمرٌ فارفعه إلي ، فإن الناس لو كان إذا كبر عليهم أمر تركوه .. ما قام لهم دين ولا دنيا .

يهربان من تولي القضاء !!

قال المدائني : بعث عمر بن عبد العزيز عديَ بنَ أرطأة على البصرة نائباً ، وأمره أن يجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني ، فأيهما كان أفقهَ فَلْيُوَلِّهِ القضاء . فقال إياس ، وهو يريد أن لا يتولى : أيها الرجل سلْ فقيهي البصرة : الحسنَ وابنَ سيرين ، وكان إياس لا يأتيهما ، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به –يعني : بالقاسم– لأنه كان يأتيهما ، فقال القاسم لعدي : والله الذي لا إله إلا هو إن إياساً أفضل مني ، وأفقه مني ، وأعلم بالقضاء ، فإنْ كنتُ صادقاً فولِّه ، وإن كنت كاذباً فما ينبغي أن تولي كاذباً القضاء .

فقال إياس : هذا رجل أُوقِفَ على شفير جهنم فافتدى منها بيمين كاذبة يستغفر الله .

فقال عدي : أما إذ فطنت إلى هذا فقد وليتك القضاء .

فمكث سنة يفصل بين الناس ويصلح بينهم ، وإذا تبين له الحق حكم به .

وهل القضاء إلا هذا ؟

قال الشَّعبي : اشترى عمر بن عبد العزيز فرساً من رجل على أن ينظر إليه ، فأخذ الفرس فسار

به فعطب ، فقال لصاحب الفرس : خذ فرسك ، فقال : لا !

قال : فاجعل بيني وبينك حكماً ؛

قال الرجل : نعم ! شريح .

قال عمر : ومن شريح ؟

قال : شريح العراقي .

قال : فانطلقا إليه فقصا عليه القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ! رُدَّ كما أخذتَ .. أو خُذْ بما ابتعتَه .

فقال عمر : وهل القضاء إلا هذا ؟ سِرْ إلى الكوفة فقد ولَّيتُك قضاءَها .

أو غير ذلك يا أبتاه

قال الزبير بن بكار : حدثني العتبي قال :

« إنَّ أول ما استُبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصُه على العلم ورغبتُه في الأدب ، أن أباه وليَ مصر وهو حديث السنّ يُشَك في بلوغه ، فأراد أبوه إخراجه معه إلى مصر من الشام ، فقال : يا أبت أو غير ذلك لعله يكون أنفع لي ولك ، قال : وما هو ؟ قال : ترحِّلني إلى المدينة فأقعد إلى فقهائها وأتأدب بآدابهم . فعند ذلك أرسله أبوه إلى المدينة ، وأرسل معه الخدام ، فقعد مع مشايخ قريش ، وتجنب شبابهم ، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر ذكره ، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده ، وقدمه على كثير منهم ، وزوجه بابنته فاطمة ، وهي التي يقول الشاعر فيها :

بنـــتُ الخليفـــةِ والخليفـــةُ جـــدُّها أختـــتُ الخلائـــفِ والخليفـــةُ زوجُهـــا

اعجبْ من عرف اللّه فعصاه !

قال عثمان بن زبر : أقبل سليمان بن عبد الملك ، وهو أمير المؤمنين ، ومعه عمر بن

عبد العزيز على معسكر سليمان ، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال ..

فقال سليمان : ما تقول يا عمر في هذا ؟ .

فقال : أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً وأنت المسؤول عن ذلك كله .

فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ، ونعبَ نعبةً .. فقال له سليمان : ما هذا يا عمر ؟! .

فقال : لا أدري .

فقال : ما ظنك أنه يقول ؟

قال : كأنه يقول : من أين جاءتْ وأين يُذهب بها ؟ .

فقال له سليمان : ما أعجبك ؟! .

فقال عمر : اعجبْ ممن عرف الله فعصاه ، ومن عرف الشيطان فأطاعه ، ومن عرف الدنيا فركن إليها ! .

واللّه ما كـذبت

ذكر الإمام مالك أن سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز تقاولا مرة ، فقال له سليمان في جملة الكلام : كذبتَ !.

فقال : تقول كذبت ؟! والله ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله ..

ثم هجره عمر وعزم على الرحيل إلى مصر ، فلم يُمكِّنه سليمان ، ثم بعث إليه فصالحه ، وقال له : ما عرض لي أمر يهمني إلا خطرتَ على بالي .

أول خطبة لعمر بن عبد العزيز

لما ولي عمر بن عبد العزيز بالخلافة دخل المسجد ، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه ، فقال :

« أيها الناس ! ، إنّي قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأيٍ كان مني فيه ، ولا طُلبةٍ له ، ولا مشورةٍ من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون » .

فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك لأنفسنا وأمرنا ، ورضينا كلنا بك .

فلما هدأت أصواتهم حمد الله وأثنى عليه ، وقال :

« أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء ، وليس من تقوى الله خلف ، وأكثروا من ذكر الموت فإنه هادم اللذات ، وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله ، وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها ، ولا في كتابها ، ولا في نبيها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقا » .

ثم رفع صوته فقال :

« أيها الناس ! ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم » .

ويحك ومالي لا أغتمّ .. ؟

لما رجع عمر بن عبد العزيز من جنازة سليمان ، وقد بايعه الناس واستقرت الخلافة باسمه ، انقلب وهو مغتمٌ مهمومٌ ، فقال له مولاه : مالكَ هكذا مغتمّاً مهموماً وليس هذا بوقت هذا ؟ ، فقال : « ويحك ومالي لا أغتمّ وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبني بحقه أن أؤديه إليه ، كتبَ إليَّ في ذلك أو لم يكتب ، طلبه مني أو لم يطلب » .

فَلْيَصْحَبْنا بخمسٍ وإلاّ فَلْيُفارِقْنا

عن سلام بن سليم : لما وليَ عمر بن عبد العزيز صعد المنبر ، وكان أول خطبة خطبها حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلاّ فليفارقنا :

1- يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها .

2- ويعيننا على الخير بجهده .

3- ويدلُّنا من الخير على ما لا نهتدي إليه .

4- ولا يغتابنَّ عندنا أحداً .

5- ولا يعرضن فيما لا يعنيه »

فانقشع عنه الشعراء والخطباء ، وثبت معه الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعلُه قولَه .

ثلاثة يوصون عمرا

قال سفيان بن عيينة : لما وليَ عمر بن عبد العزيز بعث إلى محمد بن كعب ، ورجاء بن حيوة ، وسالم بن عبد الله ، فقال لهم : قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بي ، فما عندكم ؟

– فقال محمد بن كعب : اجعلِ الشيخَ أباً ، والشابَ أخاً ، والصغيرَ ولداً ، وبرَّ أباك وصلْ أخاك ، وتعطَّف على ولدك .

– وقال رجاء : ارضَ للناس ما ترضى لنفسك ، وما كرهتَ أن يُؤتى إليك فلا تأته إليهم .

– وقال سالم : اجعل الأمر واحداً ، وصُمْ فيه عن شهوات الدنيا ، واجعل آخر فطرك فيه الموت . فكأنْ قد .

فقال عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله .

رحمتُ نفسي فبكيت

قالت زوجة عمر فاطمة :

دخلت يوماً على عمر وهو جالس في مصلاه واضعاً خدّه على يده ودموعه تسيل على خديه ، فقلت : ما لك ؟!

فقال : « ويحك يا فاطمة ، قد وُلِّيتُ من أمر هذه الأمة ما وُلِّيتُ ، فتفكرت في الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذي العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمتُ أن ربي عزَّ وجلَّ سيسألني عنهم يوم القيامة ، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ ، فخشيت أن لا يثبت لي حُجة عند خصومته ، فرحمت نفسي فبكيت » .

كن عبداً للّه ناصحا

قال ابن كثير : كتب عمر –بن عبد العزيز– إلى عماله يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشرّ ، ويبيّن لهم الحق ويوضحه لهم ، ويعظهم فيما بينه وبينهم ، ويخوّفهم بأمر الله وانتقامه ، وكان فيما كتبه إلى عبد الرحمن بن نعيم القشيري :

« أما بعد ؛ فكن عبداً لله ، ناصحاً لله في عباده ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ؛ فإن الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم ، ولا تُوليّن شيئاً من أمور المسلمين إلا المعروفَ بالنصيحة لهم ، والتوفير عليهم ، وأدَّى الأمانة فيما استرعى ، وإياك أن يكون ميلك إلى غير الحق ، فإن الله لا تخفى عليه خافية ، ولا تذهبنَّ عن الله مذهباً ، فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه » .

هو واللّه أعلمكم !

قال ابن وهب : حدثني الليث عن أبي النضر المديني ، قال : « رأيت سليمان بن يسار خارجاً

من عند عمر بن عبد العزيز ، فقلت له : من عند عمر خرجت ؟ ، قال : نعم ، قلت : تعلّمونه ؟ قال : نعم ، فقلت : هو والله أعلمكم » .

وقال مجاهد : أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه . وقال ميمون بن مهران : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة .

من حِكَمِ عمر في خُطبه

▪ خطب عمر بن عبد العزيز في الناس يوماً فقال – وقد خنقته العَبْرة – :

« أيها الناس ، أصلحوا آخرتكم يصلحِ اللهُ دنياكم ، وأصلحوا أسراركم يصلحِ اللهُ علانيتكم » .

▪ وقال في بعض خطبه :

« كم من عامرٍ موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله الرحلة بأحسن ما يحضر بكم من النقلة ، بينما ابن آدم في الدنيا ينافس قرير العين فيها يانع ، إذْ دعاه الله بقدره ، ورماه بسهم حتفه ، فسلبه أثارةَ دنياه ، وصيَّر إلى قوم آخرين مصانعه ومغناه ، إنَّ الدنيا لا تسر بقدر ما تضر ، تسر قليلاً وتُحزن طويلا » .

▪ ولما استخلف عمر بن عبد العزيز قام في الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمد عليه السلام ، وإني لست بقاضٍ ولكني منفّذ ، وإني لست بمبتدع ولكني متبع ، إنَّ الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بظالم إلا أن الإمام الظالم هو العاصي ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عزَّ وجلَّ » .

وفي رواية أنه قال فيها :

« وإني لست بخير من أحد منكم ، ولكني أثقلكم حملا » .

ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ؟

كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإنكم لم تُخلقوا عبثاً ، ولم تُتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى ، وحُرِمَ جنة عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا انه لا يأمن غداً إلا من حذر اليوم الآخر وخافه ، وباع فانياً بباقٍ ، ونافداً بما لا نفاد له ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيكون من بعدِكم للباقين ، كذلك حتى تُرد إلى خير الوارثين ، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله لا يرجع ، قد قضى نحبه ، حتى تغيِّبوه في صدع من الأرض ، في بطن صدع غير موسد ولا ممهد ، قد فارق الأحباب ، وواجه التراب والحساب ، فهو مرتهن بعمله ، غنيٌ عما ترك ، فقير لما قدَّم ، فاتقوا الله قبل القضاء ، وراقبوه قبل نزول الموت بكم . أما إني أقول هذا » ثم وضع طرف رداءه على وجهه فبكى وأبكى من حوله .

وفي رواية : « وأيم الله إني لا أقول قولي هذا ولا أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ، ولكنها سننٌ من الله عادلة ؛ أمر فيها بطاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، وأستغفر الله » ووضع كُمَّه على وجهه ، فبكى حتى بلَّ لحيته ، فما عاد لمجلسه حتى مات رحمه الله .

من استكملها استكمل الإيمان

عن عيسى بن عاصم قال :

« كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة : إن للإسلام سنناً وفرائض وشرائع ؛ فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإنْ أعش أبينها لكم لتعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص » .

ما أكثر الواعظين وأقلَّ العاملين !

ذكر الصولي أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى بعض عُمّاله :

« عليك بتقوى الله ؛ فإنها هي التي لا يقبل غيرها ، ولا يرحم إلا أهلها ، وإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل » .

كلامك من عملك .. فاعمل بعلم

قال عمر بن عبد العزيز :

« من علم أن كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه وينفعه ، ومن أكثر ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير » .

وقال أيضاً : « من لم يعدّ كلامه من عمله كثرت خطاياه ، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه » .

لا حاجة لنا في مقاولتك

كلّم رجل يوماً عمر بن عبد العزيز حتى أغضبه ، فهمَّ به عمر ثم أمسك نفسه ، ثم قال للرجل :

« أردت أن يستفزّني الشيطان بعزة السلطان فأنال منك ما تناله مني غداً ؟ قم عافاك الله لا حاجة لنا في مقاولتك » .

وكان يقول : « إن أحب الأمور إلى الله القصد في الجدّ ، والعفو في المقدرة ، والرفق في الولاية ، وما رفق عبد بعبد في الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة » .

إنه يتيم وقد أفزعتموه

خرج ابنٌ لعمر بن عبد العزيز وهو صغير يلعب مع الغلمان ، فشجَّه صبي منهم ، فاحتملوا الصبيَّ الذي شجَّ ابنه وجاؤوا به إلى عمر ، فسمع الجلبة فخرج إليهم ، فإذا مُرَيْئَةٌ تقول : إنه ابني وإنه يتيم .. فقال لها عمر : هوِّني عليك .

ثم قال لها عمر : أله عطاء في الديوان ؟

قالت : لا .

قال : فاكتبوه في الذرية .

فقالت زوجته فاطمة : أتفعل هذا به وقد شجّ ابنك ؟! ، فعل الله به وفعل ، المرة الأخرى يشجّ ابنك ثانية !

فقال : ويحك ، إنه يتيم وقد أفزعتموه .

هي لنا رشوة !

أهدى لعمر بن عبد العزيز رجل من أهل بيته تفاحاً ، فاشتمّه ثم رده مع الرسول ، وقال له : قل له قد بلغت محلها .

فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ كان يقبل الهدية ، وهذا رجل من أهل بيتك .

فقال : إن الهدية كانت لرسول الله ﷺ هدية ، فأما نحن فهي لنا رشوة .

قمتُ وأنا عمر .. وجلستُ وأنا عمر

قال رجاء بن حيوة : سمرت عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلة ، فعشى السراج ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ألا أنبه هذا الغلام يصلحه ؟ فقال : لا ، دعه ينام ، لا أحب أن أجمع عليه عملين .

فقلت: أفلا أقوم أصلحه ؟ فقال : لا ، ليس من المروءة استخدام الضيف .

ثم قام بنفسه فأصلحه وصبّ فيه زيتاً ، ثم جاء وقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلست وأنا عمر بن عبد العزيز .

من كان باكياً فلْيبك على نفسه

بلغ عمرَ بن عبد العزيز أن رجلاً من أصحابه توفي ، فجاء إلى أهله ليعزِّيهم فيه ، فصرخوا في وجهه بالبكاء عليه ..

فقال : مه ! إن صاحبكم لم يكن يرزقكم ، وإن الذي يرزقكم حيّ لا يموت ، وإن صاحبكم هذا لم يسدّ شيئاً من حُفركم ، وإنما سدّ حفرة نفسه ، ألا وإن لكل امرئٍ منكم حفرة لا بدّ والله أن يسدها .

إن الله عزَّ وجلَّ لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب ، وعلى أهلها بالفناء ، وما امتلأت دارٌ خُبْرَةً[1] إلا امتلأت عِبْرَةً ، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا ، حتى يكون الله هو الذي يرث الأرض ومن عليها ؛ فمن كان منكم باكياً فليبك على نفسه ، فإن الذي صار إليه صاحبكم .. كلُّ الناس يصيرون إليه غدا .

كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذة

قال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى القبور ، فقال لي :

« يا أبا أيوب ! هذه قبور آبائي بني أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المَثُلات[2] ، واستحكم فيهم البلاء ؟ .

(1) الخُبْرَة : من معانيها : ما قدِّم من شيء ، وما يشتريه الرجل لأهله من طعام ، والثريدةُ الضخمة الدسمة . ولعل المراد : كثرة المال المفضي إلى الغفلة عن الآخرة .

(2) المَثُلات : ما أصاب القرون الماضية من الفناء والعذاب ، وهي عِبَرٌ لمُعتبر .

ثم بكى حتى غشيَ عليه ، ثم أفاق فقال : انطلقوا بنا . فوالله لا أعلم أحداً أنعمَ ممّنْ صار إلى هذه القبور ، وقد أَمِنَ من عذاب الله ، ينتظر ثواب الله » .

لو رأيتَ الميت بعد ثلاث !

قال عمر بن عبد العزيز مرة لرجل من جلسائه :

« لقد أرقتُ الليلة مفكراً . قال : وفيم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث في قبره ، وما صار إليه ، لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته ، ولرأيت بيتاً تجول فيه الهوام وتخترق فيه الدّيدان ، ويجري فيه الصديد ، مع تغُّير الريح ، وبلى الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ، ونقاء الثوب »

ثم شهق شهقة وخرَّ مغشياً عليه .

يا نفسُ ! .. لم تخلقي عبثا

نظر عمر بن عبد العزيز ، وهو في جنازة ، إلى قوم قد تلثموا من الغبار والشمس ، وانحازوا إلى الظلِّ ، فبكى وأنشد :

من كان حين تصيب الشمسُ جبهتَهُ ... أو الغبارُ يخاف الشَّيْنَ والشعثا

ويألف الظل كي تبقى بشاشتُهُ ... فكيف يسكن يوماً راغماً جَدثا

في قعر مظلمةٍ غبراءَ موحشةٍ ... يطيل في قعرها تحت الثرى اللبثا

تجهزي بجهاز تبلغين بهِ ... يا نفسُ قبل الردى لم تخلقي عبثا

إنّما هو نواحة .. !

ذكر الآجري في « أدب النفوس » بسنده إلى عمر بن الخطاب الأزدي قال : حدثني ابنٌ لعبد الصمد بن عبد الأعلى بن أبي عمرة قال : أراد عمر بن عبد العزيز أن يبعث عبد الأعلى رسولاً إلى إليون طاغية الروم يدعوه إلى الإسلام ، فقال له عبد الأعلى : يا أمير المؤمنين ائذن لي في بعض بَنِيَ يخرج معي .

فقال له : انظر من يخرج معك من ولدك .

فقال : عبد الله .

فقال له عمر : إني رأيت ابنك عبدَ الله يمشي مشيةً كرهتها منه ومقتُّه عليها ، وبلغني أنه يقول الشعر .

فقال عبد الأعلى : أما مشيته تلك فغريزة فيه ، وأما الشعر فإنما هو نواحة ينوح بها على نفسه .

فقال له : مُرْ عبد الله يأتيني ، وخذ معك غيره .

فراح عبد الأعلى بابنه عبد الله إليه ، فاستنشده عمر فأنشده :

تجهـــزي بجهـــاز تبلغيـــن بـــه ... يـا نفسُ قبـل الـردى لـم تُخلقـي عبثـا

ولا تكـــدّي لمـــن يبقـــى وتفتقـــري ... إن الـــردى وارث البـــاقي ومـــا وَرِثـــا

واخشـي حـوادث صـرفِ الـدهر فـي مهـلٍ ... واســـتيقظي لا تكـــوني كالـــذي بحثـــا

عـــن مُدْيَـــةٍ كـــان فيهـــا قطـــع مدّتِـــه ... فوافـــتِ الحـــرث موفـــوراً كمـــا حُرِثـــا

لا تـــأمني فجـــعَ دهـــرٍ متـــرفٍ خَتِـــلٍ ... قـــد اســـتوى عنـــده مـــن طـــاب أو خَبُثـــا

يـــا رُبَّ ذي أمـــلٍ فيـــه علـــى وجـــلٍ ... أضـــحى بـــه آمنـــاً أمســـى وقـــد حـــدثا

مـــن كـــان حـــين تصـــيب الشـــمسُ جبهتَـــهُ ... أو الغبـــارُ يخـــاف الشَّـــيْنَ والشـــعثا

ويـــألف الظـــل كـــي تبقـــى بشاشـــتُهُ ... فكيـــف يســـكن يومـــاً راغمـــاً جَدثـــا

قفـــراءَ موحشـــةٍ غبـــراءَ مظلمـــةٍ ... يطيـــل تحـــت الثـــرى مـــن قعرهـــا اللبثـــا

وكان عمر يتمثل بها كثيراً ويبكي .

نهارك يا مغرور سهوٌ وغفلة !

قال عبد الله بن المبارك : كان عمر بن عبد العزيز يقول :

تُســـر بمـــا يفنـــى وتفـــرح بالمنـــى كمـــا اغتـــر باللـــذات فـــي النـــوم حـــالمُ
نهـــارُك يـــا مغـــرورُ ســـهوٌ وغفـــلةٌ وليلـــك نـــومٌ والـــردى لـــك لازمُ
وســـعيُك فيمـــا ســـوف تكـــره غِبَّـــهُ كـــذلك فـــي الـــدنيا تعـــيش البهـــائمُ

خير الأبناء من أعان أباه

لما فرغ عمر بن عبد العزيز من دفن سليمان بن عبد الملك وبيعة الناس ، ذهب يتبوأ مقيلاً ، فأتاه ابنه عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين : ماذا تريد أن تصنع ؟! . قال : يا بني أقيل . قال : تقيل ولا ترد المظالم لأهلها ؟! . فقال : إني سهرت البارحة في أمر سليمان ، فإذا صليت الظهر رددت المظالم . فقال له ابنه : ومن لك أن تعيش إلى الظهر ؟! . قال : ادنُ مني أي بُني ، فدنا منه فقبَّل بين عينيه وقال : الحمد لله الذي أخرج من صلبي من يعينني على ديني . ثم قام وخرج وترك القائلة ، وأمر مناديه فنادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها .

الفِعال أولى بالمؤمن من المقال

قال ميمون بن مهران : تكلم عمر بن عبد العزيز ذات يوم وعنده رهط من إخوانه ، فَفُتح له منطق وموعظة حسنة ، فنظر إلى رجل من جلسائه وقد ذرفت عيناه بالدموع ، فلما رأى ذلك عمر قطع منطقه .

فقلت له : يا أمير المؤمنين امضِ في موعظتك فإني أرجو أن يمن الله به على من سمعه أو بلَغَه .

فقال : إليك عني يا أبا أيوب ، فإن في القول على الناس فتنة لا يخلص من شرها متكلم

عليهم ، والفعال أولى بالمؤمن من المقال .

الأحمق والكافر

أمر عمر بن عبد العزيز مناديه ذات يوم فنادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، فخطبهم فقال في خطبته :

« إني لم أجمعكم إلاّ أنّ المصدق منكم بما بين يديه من لقاء الله والدار الآخرة ولم يعمل لذلك ويستعد له أحمق ، والمكذب له كافر . ثم تلا قوله تعالى : ﴿**أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ** ...﴾ [فصلت : 54] » وقوله تعالى : ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾ [يوسف : 106] .

إنك من أولاد الأنبياء

خرج زين العابدين علي بن الحسين يوماً من المسجد ، فسبَّه رجل ، فانتدب الناس إليه ، فقال : دعوه ..

ثم أقبل عليه فقال : ما ستره الله عنك من عيوبنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل ، فألقى إليه خميصةً كانت عليه ، وأمر له بألف درهم .

فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء .

لا تصحب خمسة

قال علي بن الحسين لابنه : يا بُني ! ..

1- لا تصحب فاسقاً .. فإنه يبيعك بأكلة ، وأقل منها يطمع فيها ثم لا ينالها .

2- ولا بخيلاً .. فإنه يخذلك في ماله أحوجَ ما تكون إليه .

3- ولا كذاباً .. فإنه كالسراب يقربَّ منك البعيد ، ويُباعدُ عنك القريب .

4- ولا أحمق .. فإنه يريد أن ينفعك فيضرك .

5- ولا قاطع رحم .. فإنه ملعون في كتاب الله ، قال تعالى : ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**﴾ [محمد : 22-23] .

العلم يطلب حيث كان

كان علي بن الحسين إذا دخل المسجد تخطى الناس .. حتى يجلس في حلقة زيد بن أسلم ..

فقال له نافع بن جبير بن مطعم : غفر الله لك ، أنت سيد الناس تأتي تخطّى حلق أهل العلم وقريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود ؟! .

فقال له علي بن الحسين : إنما يجلس الرجل حيث ينتفع .. وإنَّ العلمَ يُطلبُ حيث كان .

أنت حرة لوجه اللّه

قال عبد الرزاق : سكبت جاريةٌ لعلي بن الحسين عليه ماء ليتوضأ ، فسقط الإبريق من يدها على وجهه فشجّه ، فرفع رأسه إليها ..

فقالت الجارية : إن الله يقول : ﴿... **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ** ...﴾ [آل عمران : 134] .

فقال : قد كظمت غيظي .

قالت : ﴿... **وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ** ...﴾ [آل عمران : 134] . فقال : عفا الله عنك .

فقالت : ﴿... **وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران : 134] ، قال : أنت حرة لوجه الله تعالى .

لستم من الفرقة الثالثة

روى محمد بن علي عن أبيه زين العابدين قال :

جلس قوم من أهل العراق فذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما ، ثم ابتدؤوا في عثمان ..

فقال لهم : أخبروني ! أأنتم من المهاجرين الأولين الذين ﴿... **أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ** ...﴾ [الحشر: 8] ؟

قالوا : لا .

قال : فأنتم من الذين ﴿... **تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ** ...﴾ [الحشر: 9] ؟

قالوا : لا .

فقال لهم : أما أنتم فقد أقررتم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء ، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة .. الذين قال الله عزَّ وجلَّ فيهم : ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا** ...﴾ [الحشر: 10] الآية ، فقوموا عني لا بارك الله فيكم ، ولا قرَّبَ دوركم ، أنتم مستهزئون بالإسلام ولستم من أهله .

دعاء زين العابدين

كان زين العابدين علي بن الحسين يقول :

اللهم ! إني أعوذ بك أنْ تَحْسُنَ في لوامعِ العيونِ علانيتي ، وَتَقْبُحَ في خَفيات الغيوبِ سريرتي ..

اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إليَّ .. فإذا عدتُ فَعُدْ إليَّ ..

اللهم ارزقني مواساة من قتَّرتَ عليه رزقك .. بما وسَّعتَ عليَّ من فضلك .

أهل التقوى أيسر الناس مؤنة وأكثرهم نفعاً

قال جابر الجعفي : قال لي محمد بن علي بن الحسين المشهور بالباقر :

يا جابر ! إني لمحزونٌ ، وإني لمشتغلُ القلب .

قلت : وما حزنُك وشغلُ قلبِكَ ؟!

قال : إنه من دخل قلبَه صافي دينِ الله عزَّ وجلَّ شغله عما سواه ..

يا جابر ! ما الدنيا ؟! ، وما عسى أن تكون ؟! ، هل هي إلا مركباً ركبته ، أو ثوباً لبسته ؟ أو امرأة أصبتها ؟

يا جابر ! إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة ، ففازوا بثواب الأبرار .

إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة ، وأكثرهم لك معونة ؛ إنْ نسيتَ ذكَّروك ، وإنْ ذكرتَ أعانوك ، قوَّالين بحق الله ، قوَّامين بأمر الله .. توحَّشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها مليكهم ؛ كمنزل نزلوه ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكماء أصبتَه في منامك فلما استيقظتَ إذا ليس في يدك منه شيء .. فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته .

فصبراً في مجال الموت صبرا

قال ابن كثير : كان قَطْرِيُّ بنُ الفجاءة ، مع شجاعته المفرطة وإقدامه ، من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة وجودة الكلام والشعر الحسن ، فمن مستجاد شعره قوله يشجع نفسه

وغيره ، ومن سمعها انتفع بها :

أقـــول لهـــا وقـــد طـــارت شـــعاعاً ... مـــن الأبطـــال ؛ ويحـــكِ لـــن تُراعـــي
فإنـــكِ لـــو طلبـــتِ بقـــاءَ يـــومٍ ... علـــى الأجـــل الـــذي لـــكِ لـــم تُطـــاعي
فصـــبراً فـــي مجـــال المـــوت صـــبراً ... فمـــا نَيْـــلُ الخلـــود بمســـتطاعِ
ولا ثـــوبُ الحيـــاة بثـــوب عـــزٍّ ... فيُطـــوى عـــن أخـــى الخنـــع اليراعـــي
ســـبيلُ المـــوت غايـــةُ كـــلِّ حـــيٍّ ... وداعيـــــــهِ لأهـــــــل الأرض داعِ
ومـــن لا يغتـــبطْ يســـأمْ ويهـــرمْ ... وتُســـلمه الْمَنـــونُ إلـــى انقطـــاعِ
ومـــا للمـــرءِ خيـــرٌ فـــي حيـــاةٍ ... إذا مـــا عُـــدَّ مـــن ســـقط المتـــاعِ

رسالة ابن عمر

قال سعيد بن عبد العزيز :

لما بويع لعبد الملك –بن مروان– بالخلافة كتب إليه عبد الله بن عمر بن الخطاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله بن عمر إلى عبد الملك أمير المؤمنين . سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنك راع ، وكل راع مسؤول عن رعيته ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا**﴾ [النساء : 87] لا أحد . والسلام .

ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

قال ابن كثير :

ذكر غير واحد أن عروة بن الزبير لما خرج من المدينة متوجهاً إلى دمشق ليجتمع بالوليد –بن عبد الملك– وقعت الأَكَلَةُ في رِجله في واد قرب المدينة ، وكان مبدؤها هناك ، فظن أنها لا يكون

منها ما كان ، فذهب في وجهه ذلك ، فما وصل إلى دمشق إلاَّ وهي قد أكلت نصف ساقه ، فدخل على الوليد فجمع له الأطباء العارفين بذلك ، فأجمعوا على أنه إن لم يقطعها وإلا أكلت رجله كلها إلى وركه . وربما ترقّتْ إلى الجسد فأكلته ، فطابت نفسُه بنشرها . وقالوا له : ألا نسقيك مُرَقِّداً حتى يذهب عقلك منه فلا تحس بألم النشر ؟ فقال : لا والله ما كنت أظن أن أحداً يشرب شراباً أو يأكل شيئاً يُذهبُ عقلَه ، ولكن إن كنتم لا بد فاعلين فافعلوا ذلك وأنا في الصلاة ، فإني لا أحس بذلك ، ولا أشعر به . قال : فنشروا رجله من فوق الأكلة ، من المكان الحي ، احتياطاً أنه لا يبقى منها شيء ، وهو قائم يصلي ، فما تضور ولا اختلج .

فلما انصرف من الصلاة عزّاه الوليد في رجله ، فقال :

«اللهم لك الحمد ، كان لي أطراف أربعة ، فأخذت واحداً ، فلئن كنتَ قد أخذتَ فقد أبقيت ، وإن كنتَ قد ابتليت فلطالما عافيت ، فلك الحمد على ما أخذت وعلى ما عافيت» .

قال : وكان قد صحب معه بعض أولاده ، من جملتهم ابنه محمد ، وكان أحبَّهم إليه ، فدخل دار الدواب فرفسته فرس فمات ، فأتوه فعزُّوه فيه ، فقال :

«الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحداً وأبقيت ستة ، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما عافيت ، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت» .

فلما قضى حاجته من دمشق رجع إلى المدينة ، قال : فما سمعناه ذكر رجله ولا ولده ، ولا شكا ذلك إلى أحد ، حتى دخل وادي القرى ، فلما كان في المكان الذي أصابته الأكلة فيه قال : ﴿**لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً** ...﴾ [الكهف : 62] ، فلما دخل المدينة أتاه الناس يسلمون عليه ويعزونه في رجله وولده ، فبلغه أن بعض الناس قال : إنما أصابه هذا بذنب عظيم أحدثه . فأنشد عروة في ذلك ، والأبيات لمعن بن أوس :

لَعَمْــرُكَ مــا أهويــتُ كفــى لريبــةٍ ... ولا حملتنــي نحــو فاحشــة رجلــي

ولا قــادني ســمعي ولا بصــري لهــا ... ولا دلنــي رأيــي عليهــا ولا عقلــي

ولســتُ بمــاشٍ مــا حييــتُ لمنكــرٍ ... مــنَ الأمــر لا يمشــي إلــى مثلــه مثلــي

ولا مــؤثرٍ نفســي علــى ذي قرابــة ... وأُوثِــرُ ضــيفي مــا أقــام علــى أهلــي

وأعلــمُ أنــي لــم تصــبني مصــيبةٌ ... مــن الــدهر إلا قــد أصــابت فتــىً مثلــي

إني لأسأل اللّه الملح

رأى عروة بن الزبير رجلاً يصلي صلاة خفيفة ، فدعاه ، فقال : يا أخي أما كانت لك إلى ربك حاجة في صلاتك ؟! إني لأسأل الله في صلاتي حتى أسأله الملح .

من سألك عمّا يعنيه فأفْتِه

قال عكرمة مولى ابن عباس : قال لي ابن عباس : انطلق فأفتِ الناس ، فمن سألك عما يعنيه فأفته ، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تفته ، فإنك تطرح عني ثلثي مؤنة الناس .

الأرض تبكي !

روى ابن المبارك ، عن داود بن قيس ، قال : سمعت محمد بن كعب يقول : إن الأرض لتبكي من رجل وتبكي على رجل ، تبكي على من كان يعمل على ظهرها بطاعة الله ، وتبكي ممن كان يعمل على ظهرها بمعصية الله ، قد أثقلها . ثم قرأ : ﴿**فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ**﴾ [الدخان : 29] .

ما وجد الشيطان رسولاً غيرك ؟!

عن منير مولى الفضل بن أبي عياش قال : كنت جالساً مع وهب بن منبِّه فأتاه رجل .. فقال له : إني مررت بفلان وهو يشتمك .

فغضب وقال : ما وجد الشيطان رسولاً غيرك ؟! .

فما برحتُ من عنده حتى جاءه ذلك الشاتم ، فسلم على وهب ، فرد عليه السلام ، ومد يده إليه وصافحه وأجلسه إلى جنبه .

الإخلاصُ ريحُ الطاعةِ والعملُ طعمُها

روى الطبراني عن وهب بن منبه أنه قال :

إذا أردت أن تعمل بطاعة الله عزَّ وجلَّ .. فاجتهد في نصحك وعملك ؛ فإن العمل لا يُقبل ممن ليس بناصح ، والنصح لله لا يكمُل إلا بطاعة الله ، كمثل الثمرة الطيبة ريحها وطعمها ، كذلك مثل طاعة الله : النصح ريحها ، والعمل طعمها .

ثم : زيِّن طاعتك بالحلم والعقل ، والفقه والعمل ..

ثم : أَكْبِرْ نفسَك عن أخلاق السفهاء وعبيد الدنيا ، وعبِّدْها على أخلاق الأنبياء والعلماء العاملين ، وعوِّدْها فعلَ الحكماء ، وامنعْها عملَ الأشقياء ، وألْزِمْها سيرةَ الأتقياء ، واعْزُبْها عن سُبُل الخبثاء .

وما كان لك من فضل فأَعِنْ به مَنْ دونك ، وما كان فيمن دونك من نقص فأَعِنْهُ عليه حتى يبلغه ؛ فإن الحكيمَ من جمع فواضِلَه وعاد بها على من دونه ، وينظر في نقائص من دونه فيقويها ويرجيها حتى يبلِّغَه :

1- إنْ كان فقيهاً حمل من لا فقه له .. إذا رأى أنه يريد صحبته ومعونته .

2- وإذا كان له مال .. أعطى منه مَنْ لا مال له .

3- وإذا كان مصلحاً استغفر للمذنب ورجا توبته .

4- وإذا كان محسناً .. أحسن إلى من أساء إليه .. واستوجب بذلك أجره .

ولا يغتر بالقول .. حتى يحسُنَ منه الفعل ، فإذا أحسن الفعل .. نظر إلى فضل الله وإحسانه إليه ، ولا يتمنى الفعل حتى يفعله ، فإذا بلغ من طاعة الله مبلغاً .. حمد الله على ما بلغ منها ، ثم طلب ما لم يبلغ منها .

وإذا ذكر خطيئة سترها عن الناس .. استغفر الله الذي هو قادر على أن يغفرها .
وإذا علم من الحكمة شيئاً .. لم يُشبعه بل يطلب ما لم يبلغ منها .

ثم لا يستعين بشيء من الكذب ، فإن الكذب كالأَكَلَةِ في الجسد تكاد تأكله ، أو كالأَكَلَةِ في الخشب : يُرى ظهرها حسناً ، وجوفها نَخِرٌ ؛ تغرُّ من يراها حتى تنكسر على ما فيها وتهلك من اغتر بها . وكذلك الكذب في الحديث لا يزال صاحبه يغترُّ به ، يظن أنه معينُه على حاجته ورائدٌ له في رغبته ، حتى يُعْرَفَ ذلك منه ، ويتبين لذوي العقول غروره ، فتستنبط الفقهاء ما كان يستخفي به عنهم ، فإذا اطلعوا على ذلك من أمره وتبين لهم : كذّبوا خبرَه ، وأباروا شهادتَه ، واتهموا صدقَه ، وحقروا شأنَه ، وأبغضوا مجلسَه ، واستخفُّوا منه بسرائرهم ، وكتموه حديثَهم ، وصرفوا عنه أماناتِهم ، وغيَّبوا عنه أمرَهم ، وحَذِروه على دينهم ومعيشتهم ، ولم يُحضروه شيئاً من محاضرتهم ، ولم يأمنوه على شيء من سرهم ، ولم يُحكِّموه فيما شجر بينهم .

الزهد عونٌ على الاستقامة

قال سفيان بن عيينة : قال وهب بن منبه :
أعونُ الأخلاقِ على الدين الزهادةُ في الدنيا ، وأسرعُها رداً اتِّباعُ الهوى وحبُّ المال والشرف ؛ ومن حب المال والشرف .. تُنتهك المحارم ، ومن انتهاك .. المحارم يغضب الرب ، وغضبُ الله ليس له دواء .

ويحك يا عطاء !!

قال وهب بن منبه لعطاء الخراساني : ويحك يا عطاء ! أَلم أُخْبَرْ أنك تحمل علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيا ، وأبواب الأمراء ؟! .

ويحك يا عطاء ! أتأتي من يُغلق عنك بابَه ، ويُظهر لك فقرَه ، ويواري عنك غناه .. وتترك بابَ من يقول : ﴿... **ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ...﴾ [غافر : 60] ؟! .

ويحك يا عطاء ! إنْ كان يُغنيك ما يكفيك .. فأوهى ما في الدنيا يكفيك ، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك .. فليس في الدنيا شيء يكفيك .

ويحك يا عطاء ! إنما بطنُك بحرٌ من البحور ، ووادٍ من الأدوية ، لا يملؤه شيءٌ إلا التراب .

ألا أعلمك طباً وفقهاً وحلماً ؟

قال وهب بن منبه لرجل من جلسائه :

ألا أعلمك طِباً لا يتعايا فيه الأطباء ، وفقهاً لا يتعايا فيه الفقهاء ، وحِلماً لا يتعايا فيه الحُلماء ؟

قال : بلى يا أبا عبد الله .

قال :

1- أما الطب ؛ فلا تأكل طعاماً إلا سميتَ الله على أوله وحمدتَه على آخره .

2- وأما الفقه ؛ فإن سئلتَ عن شيء عندك فيه علم فأخبر بما تعلم .. وإلا فقل : لا أدري .

3- وأما الحلم ؛ فأَكْثِرِ الصمتَ إلا أن تسأل عن شيء .

يا ابن آدم !!

وعظ وهب بن منبه الناس موعظة بليغة ، فكان مما قال :

يا ابنَ آدم .. إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام عندك ما سيذهب ، فما الجزع مما لابد منه ؟ وما الطمع فيما لا يرتجى ؟ وما الحيلة في بقاء ما سيذهب ؟ ..

يا ابنَ آدم .. إنما الصبر عند المصيبة ، وأعظم من المصيبة سوء الخلق منها .

يا ابنَ آدم .. أي أيام الدهر ترتجي ؟ .. انظر إلى الدهر تجده ثلاثة أيام : يوم مضى لا ترجوه ، ويوم لا بد منه ، ويوم يجيء لا تأمنه :

1- فأمس .. شاهد عليك مقبول ، وأمينٌ مؤدٍّ ، وحكيمٌ مؤدِّب ؛ قد فجعك بنفسه ، وخلّف فيك حكمته .

2- واليوم .. صديقٌ مودِّع ، كان طويلَ الغَيبة عنك ، وهو سريعُ الظَّعن .. وقد مضى قبله شاهدٌ عدل .

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم !!

قال وهب بن منبه لعطاء الخراساني :

كان العلماء قبلكم قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانوا لا يلتفتون إلى أهل الدنيا ، ولا إلى ما في أيديهم ، فكان أهل الدنيا يبذلون إليهم دنياهم رغبة في علمهم .

فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة في الدنيا ، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا في علمهم لِما رأوْا من سوء موضعه عندهم ..

فإياك يا عطاء ! وأبوابَ السلطان فإن عند أبوابهم فتناً .. لا تصيب من دنياهم شيئاً .. إلا أصابوا من دينك مثله .

احذر العُجب .. وكن كالنحلة

قال عمر بن عبد الرحمن الصنعاني :

سمعت وهب بن منبه ، يقول : لقيَ عالم عالماً هو فوقه في العلم ، فقال : كيف صلاتك ؟

فقال : ما أحسب أحداً سمع بذكر الجنة والنار يأتي عليه ساعةٌ لا يصلي فيها .

قال : فكيف ذكرك للموت ؟

قال : ما أرفع قدماً ولا أضع أخرى إلا رأيت أني ميت .

فقال العالم : فكيف صلاتك أنت أيها الرجل ؟

فقال : إني لأصلي و أبكي حتى ينبت العشب من دموعي .

فقال العالم : أما إنك إنْ تضحك وأنت معترف بخطيئتك .. خيرٌ لك من أن تبكي وأنت مُدِلٌّ بعملك ، فإن المدلَّ لا يُرفع له عمل .

فقال : أوصني فإني أراك حكيماً .

فقال : ازهد في الدنيا ولا تنازع أهلها فيها .. وكُنْ فيها كالنحلة : إن أكلت أكلت طيباً ، وإن وضعت وضعت طيباً ، وإن وقعت على عود لم تكسره ، وانصحْ لله نُصْحَ الكلب لأهله ؛ فإنهم يجيعونه ويطردونه ويضربونه .. وهو يأبى إلا أن يحوطهم ويحفظهم ، وينصح لهم .

فكان وهب بن منبه إذا ذكر هذا الحديث قال : واسوأتاه إذا كان الكلب أنصح لأهله منك يا ابن آدم لله عزَّ وجلّ .

اعجب من استقام كيف استقام ؟

قال ابن المبارك : عن بكر بن عبد الله ، قال : سمعت وهب بن منبه يقول :

مرَّ رجل عابد على رجل عابد فرآه مفكراً ، فقال له : مالك ؟ ، فقال له : أعجب من فلان ، إنه كان قد بلغ من عبادته ما بلغ ، ثم مالت به الدنيا .

فقال : لا تعجب ممن مال .. كيف مال ؟ .. ولكنْ اعجبْ ممن استقام .. كيف استقام ؟!.

العبادةُ خوفٌ وطمعٌ ومحبة

قال ابن المبارك : أخبرني عمر بن عبد الرحمن أنه سمع وهب بن منبه يقول :

قال حكيم من الحكماء :

إني لأستحي من الله عزَّ وجلَّ أن أعبده رجاء ثواب الجنة فقط ، فأكون كالأجير السوء ، إن أُعطي عمل وإن لم يعط لم يعمل .

وإني لأستحي من الله عزَّ وجلَّ أن أعبده مخافة النار فقط ، فأكون كالعبد السوء إن رُهِّبَ عمل وإن تُرِكَ لم يعمل .

وإني ليستخرج مني حبُّ الله ما لا يستخرج مني غيرُه .

الأجرُ ثمرةٌ ينالها الطائعون

روى الطبراني بسنده عن عقيل بن معقل بن منبه قال : سمعت عمي وهب بن منبه ، يقول :

الأجر من الله عزَّ وجلَّ معروض ، ولكن لا يستوجبه من لا يعمل ، ولا يجده من لا يبتغيه ، ولا يبصره من لا ينظر إليه .

وطاعةُ الله .. قريبةٌ ممن يرغب فيها ، بعيدةٌ ممن زهد فيها ، ومن يحرص عليها يصل إليها ، ومن لا يحبها لا يجدها ، لا تسبق من سعى إليها ، ولا يدركها من أبطأ عنها ، وطاعةُ اللهِ تُشَرِّفُ مَنْ أكرمها ، وتُهينُ من أضاعها ، وكتابُ الله يدل عليها ، والإيمان بالله يحضُّ عليها .

اعملْ في نواحي الدين الثلاث

حدَّث عقيل بن معقل أن وهب بن منبه قال :

اعمل في نواحي الدين الثلاث ، فإن للدين نواحيَ ثلاثاً ، هُنَّ جِماعُ الأعمال الصالحة لمن أراد

جمع الصالحات :

1- أولاهن : تعمل شكراً لله على الأنْعُم الكثيرات الغاديات الرائحات ، الظاهرات الباطنات ، الحادثات القديمات .. يعمل المؤمن شكراً لهن ورجاء تمامهن .

2- والناحية الثانية من الدين : أن يعمل المؤمن رغبة في الجنة التي ليس لها ثمن ، وليس لها مِثْل ، ولا يزهد فيها وفي العمل لها إلا سفيهٌ فاجر ، أو منافقٌ كافر .

3- والناحية الثالثة من الدين : أن يعمل المؤمن فراراً من النار التي ليس لأحد عليها صبر ، ولا لأحد بها طاقة ولا يدان ، وليست مصيبتها كالمصيبات ، ولا حزن أهلها كالأحزان ، نبأها عظيم ، وشأنها شديد ، وحزنها فظيع ، ولا يغفل عن الفرار والتعوذ بالله منها إلا سفيه أحمق ﴿... **خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾ [الحج : 11] .

يا بُنيَّ ! أصلح سريرتك

روى الطبراني بسنده إلى عقيل بن معقل بن منبه قال : سمعت عمي وهب بن منبه ، يقول : يا بُنَيَّ ! .. أخلص طاعة الله بسريرة ناصحة «مُخلصة»، يصدق بها فعلك في العلانية ، فإن من فعل خيراً ثم أسرَّه إلى الله فقد أصاب مواضعه ، وأبلغه قراره ، ووضعه عند حافظه .

وإن من أسرَّ عملاً صالحاً لم يطلع عليه إلا الله ، فقد اطلع عليه من هو حسبُه ، واستحفظه واستودعه حفيظاً لا يضيع أجره ، فلا تخافن يا بني على من عمل صالحاً أسره إلى الله عزَّ وجلَّ ضياعاً ، ولا تخافن ظَلْمَةً ولا هَضْمَةً ، ولا تظنَّ أن العلانية هي أنجح من السريرة ، فإن مَثَلَ العلانية مع السريرة كمثلِ ورق الشجر مع عرقها : العلانية ورقها والسريرة أصلها . إنْ يُحْرَقِ العرقُ هلكت الشجرةُ كلُّها ، وإنْ صَلَحَ الأصلُ صلحتْ الشجرةُ ؛ ثمرُها وورقُها .

وخصلةٌ ثالثةٌ تبلغ بها الغاية

جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : علمني شيئاً ينفعني الله به .

فقال وهب : أكثر من ذكر الموت ، واقصرْ أملَك .. وخصلة ثالثة إن أنت أصبتها بلغت الغاية القصوى ، وظفرت بالعبادة الكبرى .

قال : وما هي ؟

قال : التوكل .

كن مسلماً عند الدينار

قال ابن سيرين : كان أبو الشعثاء جابر بن زيد مسلماً عند الدينار والدرهم .

قلت –ابن كثير– : كما قيل :

إنـــي رأيـــت فـــلا تظنـــوا غيـــره أن التـــورع عنـــد هـــذا الـــدرهمِ

فـــإذا قـــدرتَ عليـــه ثـــم تركتـــه فـــاعلم بـــأن تقـــاك تقـــوى المســـلمِ

وقال أبو الشعثاء : لأن أتصدق بدرهم على يتيم ومسكين .. أحبُّ إليَّ من حجةٍ بعد حجة الإسلام (أي : الفريضة) .

نصيحة جابر لجابر

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه لأبي الشعثاء جابر بن زيد :

يا ابن زيد إنك من فقهاء البصرة ، وإنك ستُستفتى ، فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فإنك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت .

دفنتم موتاكم ولم تعتبروا !

قال إبراهيم بن يزيد النخعي : كنا إذا حضرنا جنازة .. أو سمعنا بميت .. عُرف ذلك فينا أياماً ، لأنا قد عرفنا أنه نزل به أمرٌ صيَّره إلى الجنة أو إلى النار .. **وإنكم تتحدثون في جنائزكم بأحاديث دنياكم** .

وبكى إبراهيم عند موته .. فقيل له : ما يبكيك ؟! فقال : انتظارُ مَلَكِ الموت ، ما أدري يبشرني بجنة أو بنار؟ .

واللهِ لقد استجاب اللهّ لنا

قال ثابت البناني ، عن أبي عثمان . قال : إني لأعلم حين يذكرني ربي عز وجل ، قال : فيقول : من أين تعلم ذلك ؟ فيقول : قال الله تعالى : ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ** ..﴾ [البقرة : 152] فإذا ذكرتُ الله ذكرني .

قال : وكنا إذا دعونا الله قال : والله لقد استجاب الله لنا ، قال الله تعالى : ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر : 60]

ثلاث خصال تُعظم الأجر

قال مجاهد بن جبير : قلت لابن عمر : أي حجاج بيت الله أفضل وأعظم أجراً ؟ قال : من جمع ثلاث خصال : نية صادقة ، وعقلاً وافراً ، ونفقةً من حلال .

فذكرت ذلك لابن عباس فقال : صدق .

علمتَ فاعمل

قال التابعي أبو قلابة الجرمي : إذا أحدث الله لك علماً فأحدثْ له عبادة ، ولا يكن همُّك ما تحدِّثُ به الناس ، فلعل غيرك ينتفع ويستغني ، وأنت في الظلمة تتعثر .

ارفع حوائجك إلى اللّه

قال ابن جرير : قال لي عطاء : جاءني طاوس فقال لي : يا عطاء ! إياك أن ترفعَ حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، وجعل دونه حُجَّابَه .. وعليك بطلب من بابُه لك مفتوح إلى يوم القيامة .. طلب منك أن تدعوه .. ووعدك الإجابة .

لا تصحب أخا الجهل

قال طاوس بن كيسان لابنه :

1- يا بُني صاحبِ العقلاء تُنسبْ إليهم .. وإن لم تكن منهم .

2- ولا تصاحبِ الجهال فتنسب إليهم .. وإن لم تكن منهم .

3- واعلم أن لكل شيء غاية .. وغايةُ المرءِ حُسْنِ عقلهِ .

فأين أنت من الماء ؟!

رأى طاوس رجلاً مسكيناً ؛ في عينه عمشٌ ، وفي ثوبه وسخٌ ، فقال له : عَدِّ ! إن الفقر من الله .. فأين أنت من الماء ؟!

أكْيَسُ الكَيْس وأعجَزُ العَجْز

قال طاوس بن كيسان :

كان رجل فيما خلا من الزمان ، وكان عاقلاً لبيباً ، فكبر فقعد في البيت ، فقال لابنه يوماً : إني قد اغتممت في البيت ، فلو أدخلتَ علي رجالاً يكلموني ؟ .

فذهب ابنه فجمع نفراً فقال : ادخلوا على أبي فحدثوه ، فإن سمعتم منه مُنكراً فاعذروه ، فإنه قد كبر ، وإن سمعتم منه خيراً فاقبلوه .

قال : فدخلوا عليه فكان أول ما تكلم به أنْ قال :

1- إن أكيسَ الكيس التقى ، وأعجزَ العجز الفجور .

2- وإذا تزوج الرجل فليتزوج من معدن صالح .

3- وإذا اطّلعتم على فجرة رجل فاحذروه .. فإن لها أخوات .

طلقٌ يصف التقوى

كان التابعي الجليل طَلْقُ بن حبيب العنزي يقول : تقووا بالتقوى .

فقيل له : صف لنا التقوى ..

فقال : التقوى هي :

1- العملُ بطاعة الله .. على نورٍ من الله .. يرجو رحمة الله ..

2- وتركُ معصية الله .. على نور من الله .. يخاف عقاب الله .

واخجلتاه منك وإن غفرت

لما احتضر الأسود بن يزيد بكى ، فقيل له : ما هذا الجزع ؟!

فقال : مالي لا أجزع ؟! ومن أحق بذلك مني ؟! .. والله لو أُنْبِئتُ بالمغفرة من الله لأهابنَّ الحياءَ منه .. مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير .. فيعفو عنه .. فلا يزال مستحيياً منه .

إن اللبيب من الإشارة يفهم

كان يمر على صِلَةَ بنِ أَشْيَم العدوي شبابٌ يلهون ويلعبون ، فيقول : أخبروني عن قوم أرادوا سفراً ؛ فحادوا في النهار عن الطريق ، وناموا الليل .. فمتى يقطعون سفرهم ؟. فقال لهم يوماً هذه المقالة .

فقال شاب منهم : والله يا قوم إنه ما يعني بهذا غيرنا ؛ نحن بالنهار نلهو .. وبالليل ننام .

لو شتمتموه لشتمكم

مرّ على صِلَةَ بن أشيم العدوي فتىً يجرّ ثوبه ، فهمَّ أصحابُه أن يأخذوه بألسنتهم ، فقال : دعوني أَكفِكُم أمرَه ، ثم دعاه ..

فقال : يا ابن أخي ! لي إليك حاجة .

قال : وما حاجتك ؟ .

قال : أن ترفع إزارك .

قال : نعم ، ونَعِمَّتْ عينٌ لك . فرفع إزاره .

فقال صلةُ : **هذا أمثلُ مما أردتم .. لو شتمتوه لشتمكم** .

الشهيدان .. والمحتسبة

كان صلةُ بنُ أشيم العدوي وابنٌ له في غَزاة نحو بلاد فارس .. فقال له : أي بُنيّ ! تقدَّمْ فقاتِلْ حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قُتل ، ثم تقدم صلةُ فقاتل حتى قُتل .

فاجتمع النساء عند امرأته معاذة العدوية فقالت : إن كنتنَّ جئتنَّ لتهنينني فمرحباً بكنّ ، وإن كنتن جئتن لتعزينني فارجعن .

ما مجالس الذكر ؟

قال أبو زهران : سمعت عطاء بن أبي رباح يقول : من جلس مجلس ذكرٍ كفَّر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل .

قال أبو هزان : قلت لعطاء : ما مجلس الذكر ؟ فقال عطاء : مجالس الحلال والحرام ، كيف تصلي ، كيف تصوم ، كيف تنكح وتطلق ، وتبيع وتشتري ؟ .

عرفت فالزم

قال سعيد بن سلام البصري : سمعت أبا حنيفة النعمان ، يقول : لقيت عطاء بن أبي رباح بمكة فسألته عن شيء ، فقال : من أين أنت ؟

فقلت : من أهل الكوفة .

قال : أنت من أهل القرية الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً ؟!

قلت : نعم .

قال : فمن أي الأصناف أنت ؟

قلت : ممن لا يسب السلف ويؤمن بالقدر ، ولا يكفِّر أحداً من أهل القبلة بذنب .

فقال عطاء : عرفتَ فالزمْ .

كانوا يعدُّون فضول الكلام إثما

قال يعلى بن عبيد : دخلنا على محمد بن سوقة ، فقال : ألا أحدثكم بحديث لعله أن ينفعكم ، فإنه نفعني ، قال لي عطاء بن أبي رباح :

يا ابنَ أخي ، إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام إثماً ، ما عدا كتاب الله أن يقرأ ، وأمر بمعروف أو نهي عن منكر ، أو ينطق العبد بحاجته في معيشته التي لا بدّ له منها ، أتنكرون : ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۞ كِرَامًا كَاتِبِينَ**﴾ [الانفطار : 10-11] . و ﴿... **عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق : 17-18] . أما يستحي أحدكم لو نشرت عليه صحيفته التي أملاها صدر نهاره .. فرأى أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟ !! .

ثلاثٌ لا تبلون نفسك بهنّ

روى الإمام أحمد بسنده عن ميمون بن مهران أنه قال :

ثلاث لا تبلونَّ نفسك بهن :

1- لا تدخل على سلطان وإن قلت آمره بطاعة الله .

2- ولا تدخل على امرأة -في خلوة- وإن قلت أعلمها كتاب الله .

3- ولا تصغيّن بسمعك إلى ذي هوى .. فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك من هواه .

لا تحرج أخاك المسيء

قال ميمون بن مهران :

ما بلغني عن أخ لي مكروه قط إلا كان إسقاطُ المكروه عنه أحبَّ إلي من تخفيفه عليه ، فإن قال : لم أقل ، كان قوله : لم أقل أحبَّ إلي من ثمانية يشهدون عليه ، فإن قال : قلتُ ولم يعتذر ، أبغضته من حيث أحببته .

المسيء إليَّ واحد من ثلاثة

قال ميمون بن مهران : سمعت عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول :

ما بلغني عن أخ مكروهٌ قط إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل : إن كان فوقي عرفت له قدره ، وإن كان نظيري تصدقت عليه ، وإن كان دوني لم أحفل به .

ثلاث الكافر والمؤمن فيهنَّ سواء

قال ميمون بن مهران :

ثلاث الكافر والمؤمن فيهن سواء :

1- الأمانة .. تؤديها إلى من ائتمنك عليها من مسلم وكافر .

2- وبرُّ الوالدين ..وإن كانا كافرين .

3- والعهدُ .. تفي به للمؤمن والكافر .

في المال ثلاث آفات !!

قال ميمون بن مهران :

في المال ثلاث آفات ، إن نجا صاحبه من واحدة لم ينج من اثنتين ، وإن نجا من اثنتين كان قميناً أن لا ينجو من الثالثة :

- ينبغي أن يكون حلالاً طيباً .. فأيكم الذي يسلم كسبه فلم يدخله إلا طيبا ؟ ..
- فإنْ سَلِمَ من هذه .. فينبغي أن يؤدي الحقوق التي تلزمه في ماله ..
- فإن سلم من هذه .. فينبغي أن يكون في نفقته ليس بمسرف ولا مقتِّر .

أفسلم منك الروم ولم يسلم منك أخوك ؟!

قال سفيان بن الحسين : ذكرت رجلاً بسوء عند إياس بن معاوية . فنظر في وجهي وقال : أغزوتَ الروم ؟ ، قلت : لا !! ، قال : السند والهند والترك ؟ قلت : لا ، قال : أفسلم منك الروم والسند والهند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟!!

قال : فلم أعد بعدها .

إن فيك خصالاً لا تعجبني

قال رجل لإياس بن معاوية : إن فيك خصالاً لا تعجبني ! .

فقال : ما هي ؟ .

فقال : تحكم قبل أن تفهم ، ولا تجالس كلَّ أحد ، وتلبس الثياب الغليظة .

فقال له : أيها أكثر ؟ ألثلاثةُ أو الإثنان ؟ . قال : الثلاثة .

فقال إياس : ما أسرعَ ما فهمتَ وأجبت ! .

فقال : أويجهلُ هذا أحد ؟! .

فقال : وكذلك ما أحكم أنا به ، وأما مجالستي لكل أحد فلأَنْ أجلس مع من يعرف لي قدري .. أحبُّ إلي من أن أجلس مع من لا يعرف لي قدري ، وأما الثياب الغلاظ فأنا ألبس منها ما يقيني لا ما أقيه أنا .

عطاء السلطان ينال من مواقف الرجال

بعث بعض الخلفاء مالاً مستكثراً إلى البصرة ليفرق في فقراء أهلها ، وأمر أن يدفع إلى محمد بن واسع منه ، فلم يقبله ولم يلتمس منه شيئاً ، وأما مالك بن دينار فإنه قبل ما أُمر له به ، واشترى به أرقاء وأعتقهم ، ولم يأخذ لنفسه منه شيئا .

فجاءه محمد بن واسع يلومه على قبوله جوائز السلطان . فقال له : يا مالك قبلتَ جوائزَ السلطان ؟! .

فقال له مالك : يا أبا عبد الله ! سَلْ أصحابي ماذا فعلت به ؟ .

فقالوا له : إنه اشترى به أرقاء وأعتقهم .

فقال محمد بن واسع لمالك : سألتك بالله أقلبُكَ الآن لهم مثل ما كان قبل أن يَصِلوك ؟

فقام مالك وحثى على رأسه التراب ، وقال : إنما يعرف اللهَ محمدٌ بن واسع ..

السخيّ لا تؤدّبه التجارب

قال الشافعي : عتب رجاء بن حيوة على الزهري في الإسراف ، وكان يستدين ، فقال له : لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم –الحكام– ما بأيديهم عنك ، فتكون قد حُمِّلْتَ على أمانيك . قال :

فوعده الزهري أن يقصر ، فمرَّ به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل . فوقف به رجاء وقال : يا أبا بكر ما هذا بالذي فارقتنا عليه ! .

فقال له الزهري : انزل فإن السخيَّ لا تُعلِّمه التجارب .

قال ابن كثير : وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى :

لـــه ســـحائبُ جـــودٍ فـــي أناملـــهِ أمطارُهـــا الفضـــةُ البيضـــاءُ والـــذهبُ
يقـــول فـــي العســـر : إنْ أيســـرتُ ثانيـــةً أقصـــرتُ عـــن بعـــض مـــا أعطـــي ومـــا أهـــبُ
حتـــى إذا عـــاد أيـــامُ اليســـارِ لَـــهُ رأيـــتَ أموالَـــه فـــي النـــاس تُنتهـــبُ

الدنيا مرحلة انتقال لو تعلمون !

قال بلال بن سعد :

أيها الناس إنكم لم تُخلقوا للفناء وإنما خُلقتم للبقاء ، ولكنكم تنتقلون من دار إلى دار ، كما نُقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الجنة أو النار .

إنما المرء بأصغريه

استأذن كُثَيِّر عزة يوماً على عبد الملك بن مروان ، فلما دخل عليه –وكان كثيرُ دميماً قصير القامة– قال عبد الملك : لأن تسمع بالمعيدي خيرٌ من أن تراه . فقال كثير : حَيَّهلا يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان ، وإن قاتل قاتل بجنان ، وأنا الذي أقول :

وجرّبـــــتُ الأمـــــورَ وجربتنـــــي وقـــــد أبلـــــتْ عريكتـــــيَ الأمـــــورُ
ومـــا تخفـــى الرجـــالُ علـــيَّ أنـــي بهـــم لأخـــو مثاقفـــةٍ خبيـــرُ
تـــرى الرجـــلَ النحيـــفَ فتزدريـــهِ وفـــي أثوابـــهِ أَسَـــدٌ هصـــورُ

ويُعجبـــــك الطريـــــرُ فتختبـــــرْهُ فيُخلـــفُ ظنـــك الرجـــلُ الطريـــرُ
ومـــا هـــامُ الرجـــال لهـــا بـــزَيْنٍ ولكـــنْ زينُهـــا ديـــنٌ وخيـــرُ
بُغـــاث الطيـــر أطولُهـــا جســـوماً ولـــم تَطُـــلِ البُـــزاةُ ولا الصـــقورُ
وقـــد عَظُـــمَ البعيـــرُ بغيـــر لـــبٍ فلـــم يســـتغنِ بـــالعظمِ البعيـــرُ
فيُركـــبُ ثـــم يضـــرب بـــالهراوي ولا عـــرفٌ لديـــه ولا نكيـــرُ
وَعُـــودُ النبـــعِ ينبـــت مســـتمراً ولـــيس يطـــول ، والعضـــباء حـــورُ

قال ابن كثير : وقد تكلم أبو الفرج بن طرار على غريب هذه الحكاية وشعرها بكلام طويل .

فكيف أسألها من لا يملكها ؟!

لما حج هشام بن عبد الملك دخل الكعبة فإذا هو بسالم بن عبد الله ، فقال له : سالم ؟ سلني حاجة .

فقال : إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره .

فلما خرج سالم خرج هشام في أثره ، فقال له : الآن قد خرجت من بيت الله فسلني حاجة .

فقال سالم : من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ .

قال : من حوائج الدنيا .

فقال سالم : إني ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها .

تعلموا العربية !

كان عبد العزيز بن مروان يجزل عطاء من يعرب كلامه ، وينقص عطاء من يَلْحَنُ فيه ، فتسارع الناس في زمانه إلى تعلم العربية . فقال يوماً لرجل : ممن أنت ؟ قال : من بنو عبد الدار ، فقال : تجدها في جائزتك ، فنقصت جائزته مائة دينار .

احذر في كلامك ثلاثا

سأل رجل من عبد الملك –بن مروان– أن يخلو به . فأمر من عنده بالانصراف ، فلما خلا به وأراد الرجل أن يتكلم ، قال له عبد الملك : احذر في كلامك ثلاثاً :

1- إياك أن تمدحني .. فإني أعلم بنفسي منك .

2- أو تكذبني .. فإنه لا رأي لكذوب .

3- أو تسعى إليَّ بأحد من الرعية .. فإنهم إلى عدلي وعفوي أقربُ منهم إلى جوري وظلمي .

وإن شئت أَقلتُك ، فقال الرجل : أقِلْني ، فأقاله .

علّمهم الصدق وجنّبهم السفلة

قال عبد الملك –بن مروان– لمؤدب أولاده –وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر– :

1- علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن .

2- وجنبهم السفلة .. فإنهم أسوأ الناس رغبة في الخير وأقلهم أدبا .

3- وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة .

4- وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا .

5- وإذا احتجت أن تتناولهم ، فتناولهم بأدب ، ولْيكنْ ذلك في سرٍّ لا يعلم بهم أحدٌ من الغاشية فيهونوا عليهم .

نصيحة مجهول

قال الهيثم بن عدي : أذن عبد الملك –بن مروان– للناس في الدخول عليه إذناً خاصاً ، فدخل شيخ رثُّ الهيئة لم يأبه له الحرس ، فألقى بين يدي عبد الملك صحيفة وخرج فلم يدر أين ذهب ، وإذا فيها :

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الإنسان ! إن الله قد جعلك بينه وبين عباده .. فاحكمْ بينهم ﴿... **بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [ص : 26] ﴿**أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ۞ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۞ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [المطففين : 4-6] ﴿... **ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ**﴾ [هود : 103] ﴿**وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ**﴾ [هود : 104]

إن اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك ما وصل إليك ﴿**فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا** ...﴾ [النمل : 52] ، وإني أحذرك يوم ينادي المنادي ﴿**احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ** ...﴾ [الصافات : 22] ﴿... **أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [هود : 18]

قال فتغير وجه عبد الملك ، فدخل دار حرمه ، ولم تزل الكآبة في وجهه بعد ذلك أياما .

(66/9)

تلك زروعٌ قد دنا حصادُها

كتب زر بن حبيش إلى عبد الملك –بن مروان– كتاباً ، وفي آخره :

ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول البقاء ما يظهر لك في صحتك ، فأنت أعلم بنفسك ، واذكر ما تكلم به الأولون :

إذا الرجال ولدت أولادُها ... وبَلِيَتْ من كَبَرٍ أجسادُها

وجعلت أسقامُها تعتادها ... تلك زروعٌ قد دنا حصادُها

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بلَّ طرف ثوبه ، ثم قال : صدق زر ، ولو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق .

خطبةٌ بليغةٌ .. وبكاءٌ شديد

قال الأصمعي :

خطب عبد الملك –بن مروان– يوماً خطبة بليغة ، ثم قطعها وبكى بكاء شديداً ، ثم قال :

يا رب إن ذنوبي عظيمة ، وإن قليلَ عفوك أعظمُ منها ، اللهم فامحُ بقليل عفوك عظيمَ ذنوبي.

قال فبلغ ذلك الحسنَ فبكى وقال : لو كان كلامٌ يكتب بالذهب لَكُتِبَ هذا الكلام .

فالكسر والتوهين للمتبدد

لما احتضر عبد الملك –بن مروان– دخل عليه ابنه الوليد فأوصاه ، ومما جاء في الوصية :

.. وأنهاك وإخوتك عن الفرقة ، وكونوا أولاد أم واحدة ، وكونوا في الحرب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، فإن الحرب لم تُدنِ منيةً قبل وقتها ، وإن المعروف يشيد ذكر صاحبه ، ويميل القلوب بالمحبة ، ويذللُ الألسنةَ بالذكر الجميل ، ولله درُّ القائل :

إنّ الأمـــور إذا اجـــتمعنَ فرامَهـــا بالكســـر ذو حنـــقٍ وبطـــش مُفْنِـــدِ

عـــزّتْ فلـــم تُكســـرْ وإنْ هـــي بُـــدِّدَتْ فالكســـــرُ والتـــــوهينُ للمتبـــــدِّدِ

رأيت المرء تأكله الليالي !!

وفد أبو الوليد أرطاة بن زفر على عبد الملك بن مروان فأنشده أبياتاً :

رأيـــتُ المـــرء تأكلـــه الليـــالي كأكـــل الأرض ســـاقطةَ الحديـــدِ

ومـــا تُبقـــي المنيـــةُ حـــين تـــأتي علـــى نفـــس ابـــن آدم مـــن مزيـــدِ

وأعلـــمُ أنهـــا ســـتكرُّ حتـــى تُـــوَفّي نـــذرَها بـــأبي الوليـــدِ

قال : فارتاع عبد الملك وظن أنه عناه بذلك ، فقال : يا أمير المؤمنين إنما عنيت نفسي ، فقال عبد الملك : وأنا والله سيمر بي كالذي يمر بك .

هذا فقيه الناس

ذكر الواقدي وغيره خبر زيارة الوليد بن عبد الملك المدينة –سنة إحدى وتسعين– ، قال :

فلما قرب من المدينة أمر عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة فتلقوه ، فرحب بهم وأحسن إليهم ، ودخل المدينة النبوية فأُخْلِيَ له المسجدُ النبوي ، فلم يبق به أحد سوى سعيد بن المسيب ، لم يتجاسر أحد أن يخرجه ، وإنما عليه ثياب لا تساوي خمسة دراهم ، فقالوا له : تنح عن المسجد أيها الشيخ ، فإن أمير المؤمنين قادم .

فقال : والله لا أخرج منه .

فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه يصلي ههنا وههنا ويدعو الله عزَّ وجلَّ ، قال عمر بن عبد العزيز : وجعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه ، فحانت منه التفاتة ، فقال : من هذا هو سعيد بن المسيب ؟

قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ولو علم بأنك قادم لقام إليك وسلم عليك .

فقال : قد علمتُ بغضَه لنا .

فقلت : يا أمير المؤمنين إنه وإنه وشرعت أثني عليه ، وشرع الوليد يثني عليه بالعلم والدين .

فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر ، وإنما قلت ذلك لأعتذر له ، فقال : نحن أحق بالسعي إليه ، فجاء فوقف عليه ، فسلم عليه ، فلم يقم له سعيد . ثم قال الوليد : كيف الشيخ ؟ ، فقال : بخير والحمد لله ، كيف أمير المؤمنين ؟ فقال الوليد : بخير والحمد لله وحده ، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز : هذا فقيه الناس .

كفى بالموت واعظا

روى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الله المقري حدثني سفيان بن عيينة عن الزهري قال : سمعت علي بن الحسين سيد العابدين يحاسب نفسه ويناجي ربه :

1- «يا نفسُ حتَّام إلى الدنيا سكونُك ، وإلى عمارتها ركونُك ؟! ، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك ، ومَنْ وارثُهُ الأرضُ من أُلاَّفك ؟! ومن فُجِعْت به من إخوانك ، ونُقِلَ إلى الثرى من أقرانك ؟

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها ... محاسنُهم فيها بوالٍ دواثِرُ
خلت دورهم منهم وأَقْوَتْ عِراصُهم ... وساقتهمُ نحو المنايا المقادرُ
تخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها ... وضمتهمُ تحت التراب الحفائرُ

2- كم خرمتْ أيدي المنون من قرون بعد قرون ، وكم غيَّرت الأرض ببلائها ، وغيَّبت في ترابها ، ممن عاشرتَ من صنوف وشيَّعتهم إلى الأمارس ، ثم رجعت عنهم إلى عمل أهل الإفلاس :

وأنتَ على الدنيا مكبٌّ منافسٌ ... لِخُطَّابها فيها حريصٌ مكاثرُ
على خطر تمشي ، وتصبح لاهياً ... أتدري بماذا لو عقلتَ تخاطرُ
وإنَّ امرءاً يسعى لدنياه دائباً ... ويذهل عن أخراه لا شك خاسرُ

3- فحتام على الدنيا إقبالُك ، وبشهواتها اشتغالُك ، وقد وَخَطَكَ القتير ، وأتاك النذير ، وأنتَ عما يُراد بك ساه ، وبلذة يومك وغدك لاه ، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات ، وعاينت ما حل بهم من المصيبات :

وفي ذكر هول الموت والقبر والبلى ... عن اللهو واللذات للمرء زاجرُ
أبعدَ اقترابِ الأربعين تربُّصٌ ... وشيب قذال منذر يا مكابرُ
كأنك مَعْنيٌ بما هو ضائرٌ ... لنفسك عمداً ، وعن الرشد حائرُ

4- انظر إلى الأممِ الماضية ، والملوك الفانية ، كيف اختطفتهم عقبانُ الأيام ، ووافاهم الحِمام ، فانمحت من الدنيا آثارُهم ، وبقيت فيها أخبارُهم ، وأضحوا رمماً في التراب ، إلى يوم المآب :

أَمْسَوْا رميماً في التراب وعُطِّلتْ ... مجالسُهمْ منهمْ وأخلى مقاصرُ
وحلّوا بدار لا تزاور بينهم ... وأنى لسكان القبور التزاورُ ؟

فمـــا أن تـــرى إلاّ قبـــوراً قـــد ثـــووا بهـــا مســـــطحة تســـــفي عليهـــــا الأعاصـــــرُ

5- كم من ذي منعة وسلطان ، وجنود وأعوان ، تمكّن من دنياه ، ونال فيها ما تمناه ، وبنى القصور والدساكر ، وجمع فيها الأموال والذخائر ، وملح السراري والحرائر :

فمـــا صـــرفتْ كـــفَّ المنيـــة إذ أتـــتْ مبـــــادرةً تهـــــوي إليـــــه الـــــذخائرُ
ولا دفعـــتْ عنـــه الحصـــونُ التـــي بنـــى وحـــــفَّ بهـــــا أنهـــــارهُ والدســـــاكرُ
ولا قارعـــــتْ عنـــــه المنيـــــةَ حيلـــــةٌ ولا طمعـــتْ فـــي الـــذبِّ عنـــه العســـاكرُ

6- أتاه من الله ما لا يُرَد ، ونزل به من قضائه ما لا يُصَد ، فتعالى الله الملك الجبار ، المتكبر العزيز القهار ، قاصم الجبارين ، ومبيد المتكبرين ، الذي ذل لعزه كل سلطان ، وأباد بقوته كل ديان :

مليـــــكٌ عزيـــــزٌ لا يُـــــرَدُّ قضـــــاؤه حكـــيمٌ علـــيمٌ نافـــذُ الأمـــرِ قـــاهرُ
عنـــى كـــلُّ ذي عِـــزٍّ لعـــزة وجهـــهِ فكـــم مـــن عزيـــزٍ للمهـــيمن صـــاغرُ
لقـــد خضـــعت واستســـلمت وتضـــاءلت لعـــزة ذي العـــرش الملـــوك الجبـــابرُ

7- فالبدارِ البدار ، والحذارِ الحذار ، من الدنيا ومكايدها ، وما نصبت لك من مصايدها ، وتحلت لك من زينتها ، وأظهرت لك من بهجتها ، وأبرزت لك من شهواتها ، وأخفت عنك من قواتلها وهلكاتها :

وفـــي دون مـــا عاينـــت مـــن فجعاتهـــا إلـــــى دفعهـــــا داعٍ وبالزهـــــد آمـــــرُ
فجـــدَّ ولا تغفـــل وكُـــنْ متيقظـــاً فعمّـــا قليـــل يتـــرك الـــدارَ عـــامرُ
فشـــمِّر ولا تفتـــر فعمـــرك زائـــل وأنـــت إلـــى دار الإقامـــة صـــائرُ
ولا تطلـــب الـــدنيا فـــإن نعيمهـــا وإن نلـــت منهـــا غِبُّـــهُ لـــك ضـــائرُ

8- فهل يحرصُ عليها لبيب ، أو يُسَرُّ بها أريب ، وهو على ثقة من فنائها ، وغيرُ طامعٍ في بقائها ؟! . أم كيف تنام عينا من يخشى البيات ، وتسكن نفس من تَوَقَّعَ في جميع أموره الممات :

ألا لا ولكنـــــا نَغُـــــرُّ نفوسَـــــنا وتشـــغلنا اللـــذاتُ عمـــا نحـــاذرُ
وكيـــف يلـــذُّ العـــيشَ مـــن هـــو مُوقَـــفٌ بموقَـــفِ عـــدلٍ يـــوم تُبلـــى الســـرائرُ
كأنـــا نـــرى أن لا نشـــورَ وأننـــا ســـدىً مـــا لنـــا بعـــد الممـــات مصـــادرُ

9- وما عسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها ، ويتمتع به من بهجتها ، مع صنوف عجائبها وقوارع فجائعها ، وكثرة عذابه في مصابها وفي طلبها ، وما يكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها :

أمـــا قـــد تـــرى فـــي كـــل يـــوم وليلـــةٍ يـــــروح علينـــــا صَـــــرْفُها ويبـــــاكرُ
تعاورنـــــا آفاتُهـــــا وهمومُهـــــا وكـــم قـــد تـــرى يبقـــى لهـــا المتعـــاوِرُ
فـــلا هـــو مغبـــوطٌ بـــدنياه آمـــنٌ ولا هـــو عـــن تطلابهـــا الـــنفسَ قاصـــرُ

10- كم قد غرّت الدنيا من مخلدٍ إليها ، وصرعتْ من مكبٍّ عليها ، فلم تنعشه من عثرته ، ولم تنقذه من صرعته ، ولم تُشْفِهِ من ألمه ، ولم تُبْرِهِ من سقمه ، ولم تُخَلِّصْهُ من وَصْمِه :

بـــل أوردتْـــهُ بعـــد عِـــزٍّ ومَنعـــةٍ مـــواردَ ســـوءٍ مـــا لهـــنّ مصـــادرُ
فلمـــــا رأى أن لا نجـــــاةَ وأنـــــهُ هـــو المـــوتُ لا ينجيـــه منـــه التحـــاذرُ
تنـــدَّم إذْ لـــم تغـــن عنـــه ندامـــةٌ عليـــه وأبكتـــه الـــذنوب الكبـــائر

11- إذْ بكى على ما سلف من خطاياه ، وتحسَّر على ما خلَّف من دنياه ، واستغفر حين لا ينفعه الاستغفار ، ولا ينجيه الاعتذار ، عند هول المنية ونزول البلية :

أحاطـــت بـــه أحزانُـــه وهمومُـــهُ وأبلـــس لمـــا أعجزتـــه المقـــادرُ
فلـــيس لـــه مـــن كربـــة المـــوت فـــارجٌ ولـــيس لـــه ممـــا يحـــاذر ناصـــرُ
وقـــد جشـــأتْ خـــوفَ المنيـــةِ نفسُـــه تُردِّدُهـــا منـــه اللهـــا والحنـــاجرُ

12- هنالك خفَّ عُوَّادُه ، وأسلمه أهلُه وأولادُه ، وارتفعت البرية بالعويل ، وقد أيسوا من العليل ، فغمضوا بأيديهم عينيه ، ومد عند خروج روحه رجليه ، وتخلى عنه الصديق والصاحب الشفيق :

فكـــم موجـــعٍ يبكـــي عليـــه مفجَّـــعٌ ومســـتنجدٍ صـــبراً ومـــا هـــو صـــابرُ
ومســـترجعٍ داعٍ لـــه اللهَ مخلصـــاً يعـــدِّدُ منـــه كـــلَّ مـــا هـــو ذاكـــرُ
وكـــم شـــامتٍ مستبشـــر بوفاتـــه وعمـــا قليـــل للـــذي صـــار صـــائرُ

13- فشقّت جُيوبَها نساؤه ، ولطمت خدودَها إماؤه ، وأعول لفقده جيرانُه ، وتوجَّع لرزيته إخوانه ، ثم أقبلوا على جهازه ، وشمروا لإبرازه ، كأنه لم يكن بينهمُ العزيزَ المفدى ، ولا الحبيبَ المبدَّى :

وحـــل أحـــبُّ القـــومِ كـــان بقربـــه يحـــثُّ علـــى تجهيـــزه ويبـــادرُ
وشـــمّر مـــن قـــد أحضـــروه لغســـله ووجَّـــه لمـــا فـــاض للقبـــر حـــافرُ
وكُفِّـــنَ فـــي ثـــوبين واجتمعـــتْ لـــه مُشَـــيِّعةً إخوانُـــه والعشـــائرُ

14- فلو رأيتَ الأصغرَ من أولاده ، وقد غلب الحزن على فؤاده ، ويُخشى من الجزع عليه ، وخضَّبت الدموعُ عينيه ، وهو يندب أباه ويقول : يا ويلاه واحرباه

لعاينـــتَ مـــن قُـــبح المنيـــةِ منظـــراً يهـــال لمـــرآه ويرتـــاع نـــاظرُ
أكـــابرُ أولاد يهـــيج اكتئـــابهم إذا مـــا تناســـاه البنـــون الأصـــاغرُ
وربـــة نســـوان عليـــه جـــوازع مـــدامعهم فـــوق الخـــدود غـــوازرُ

15- ثم أُخرج من قصره إلى ضيق قبره ، فلما استقر في اللحد وهيئ عليه اللبن ، احتوشته أعمالُه ، وأحاطت به خطاياه ، وضاق ذرعاً بما رآه ، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب ، وأكثروا البكاء عليه والانتحاب ، ثم وقفوا ساعة عليه ، وأيسوا من النظر إليه ، وتركوه رهناً بما كسب وطلب :

فولـــوا عليـــه مُعـــولين وكلُّهـــم لمثـــل الـــذي لاقـــى أخـــوه محـــاذرُ
كشـــاءٍ رتـــاعٍ آمنـــين بـــدا لهـــا بمديتـــه بـــادي الـــذراعين حاســـرُ
فريعـــتْ ولـــم ترتـــع قلـــيلاً وأجفلـــت فلمـــا نـــأى عنهـــا الـــذي هـــو جـــازرُ

16- عادت إلى مرعاها ، ونسيت ما في أختها دهاها ، أفبأفعال الأنعام اقتدينا ؟! ، أم على عادتها جرينا ، عُدْ إلى ذكر المنقول إلى دار البلى ، واعتبرْ بموضعه تحت الثرى ، المدفوع إلى هول ما ترى :

ثـــوى مفـــرداً فـــي لحـــده وتوزعـــت مواريثَـــه أولادُه والأصـــاهرُ
وأحنـــوا علـــى أموالـــه يُقَسِّـــمونها فـــلا حامـــدٌ مـــنهم عليهـــا وشـــاكرُ
فيـــا عـــامرَ الـــدنيا ويـــا ســـاعياً لهـــا ويـــا آمنـــاً مـــن أن تـــدور الـــدوائرُ

17- كيف أمنتَ هذه الحالة ، وأنت صائر إليها لا محالة ؟! ، أم كيف ضيعت حياتك ، وهي مطيَّتُك إلى مماتك ؟! ، أم كيف تشبع من طعامك ، وأنت منتظر حِمامَك ؟! ، أم كيف تهنأ بالشهوات ، وهي مطية الآفات ؟! :

ولـــم تتـــزود للرحيـــل وقـــد دنـــا وأنـــت علـــى حـــال وشـــيك مســـافرُ

فيـــا لهـــفَ نفســـي كـــم أُسَـــوِّفُ تـــوبتي وعمـــــريَ فـــانٍ والـــــردى لـــــيَ نـــــاظرُ
وكـل الـذي أسـلفتُ فـي الصـحف مثبـتٌ يجـــازي عليـــه عـــادل الحكـــم قـــادرُ

18- فكم تُرقِّع بآخرتك دنياك ، وتركب غيَّك وهواك ؟! ، أراك ضعيف اليقين يا مؤثرَ الدنيا على الدين ، أبهذا أمرك الرحمن ؟ ، أم على هذا نزل القرآن ؟ ، أما تذكر ما أمامك من شدة الحساب وشر المآب ؟ ، أما تذكر حال من جمع وثمّر ، ورفع البناء وزخرف وعمّر ؟! ، أما صار جمعهم بوراً ، ومساكنهم قبورا ؟ :

تُخـــرِّبُ مـــا يبقـــى وتعمـــر فانيـــاً فـــــلا ذاك موفـــــورٌ ولا ذاك عـــــامرُ !
وهـــل لـــك إنْ وافـــاك حتفُـــك بغتـــةً ولـــم تكتســـب خيـــراً لـــدى الله عـــاذرُ ؟!
أترضـــى بـــأن تفنـــى الحيـــاةُ وتنقضـــي ودينُـــك منقـــوصٌ ومالُـــك وافـــرُ ؟!